نتظر من سارتر "موقفاً" واضحاً!

وقف المفكر الفرنسي جان بول سارتر من أزمة الشرق الاوسط موقفا نستطيع أن نصفه بأنه ، على أقل تقدير ، « محير » ...

وغاية هذا المقال أن يستعرض مظاهر هذا الموقف وتطوراته ، التماسا لموقف نريد نحن ، باسم كثير من القراء والمثقفين العرب ، أن يتخذه من سارتر بالذات .

ويعنينا أن نولي هذا المفكر اهتماما خاصا لامور كثيرة ليس أقلها أهمية حرصنا السابق والحالي والمقبل على أن نكسبه لقضية العرب الكبرى : حقهم في فلسطين . فلقد كان سارتر ، في مواقفه السابقة كلها ، قوة فكرية كبيرة الى جانب قضايا الشعوب المضطهدة ، وحربا على قوى الاستعمار بمختلف أشكاله . ولا نستطيع ، نحن العرب ، أن ننسى موقفه المشرف من حرب التحرير الجزائرية ، في وجه دولته وممثليها العسكريين . ولم تكن دعوة سارتر ، منذ أشهر ، لزيارة الجمهورية العربية المتحدة ، الا مستوحاة من هذا الحرص وتلك الرغبة في أن نكتسب الى جانبنا مفكرا كبيرا يستطيع بموقفه أن يخفف من أهمية كثير من المفكرين الاخرين الذين جندتهم الصهيونية لخدمتها .

وأنا شخصيا أشد اهتماما بسارتر من سواي لاني بذلت في ترجمة اثاره ونشرها جهودا كبيرة تمكنت من اجتذاب كثير من القراء العرب للاقبال على ما في هذه الاثار من بذور التفكير العميق الملتزم ، واتجاه التحرر الفكري والسياسي والاجتماعي الذي نحتاجه في حياتنا الجديدة .

ولذلك ، فلم يكن عجيبا أن نصاب جميعا بخيبة شديدة حين أطلعنا على « بيان المثقفين الفرنسيين » الذي أصدره في باريس زهاء خمسين مثقفا يوم ٢٨ ايار (مايو) الماضي ووقعه جان بول سارتر وسيمون دو بوفوار ، وفيه تأييد لاسرائيل ودفاع عنها وانحياز لجانبها ، ودعم لحقها في خليج العقبة واستنكار لما دعوه بتهديد سلامتها من قبل الدول العربية ...

وبتاريخ ٢٩ أيار ، أي في اليوم التالي مباشرة ، بادرت الى ارسال برقية عاجلة الى سارتر نشرتها الصحف اللبنانية ، الصادرة بالعربية والفرنسية ، وبعض المجلات المصرية ، هذا نصها :

« جان بول سارتر » مجلة « تان مودرن » باريس.

« نستنكر بيان بعض المثقفين الفرنسيين الذي وقعتموه مع سيمون دو بوفوار بتأييد اسرائيل . ويؤسفنا نحن المثقفين العرب أن تكونوا في موقف العجز عن التوحيد بين الامبريالية الاميركية التي تدينونها، واسرائيل، وليدة هذه الامبريالية . موقفكم الحالي في تأييد دولة اغتصبت أرضا وشردت شعبا يخون مواقفكم السابقة في تأييد نضال شعوب الجزائر وكوبا وافريقيا وسواها لاسترداد حريتها والدفاع عن حقوقها . المثقفون العرب، وفيهم أصدقاء كثيرون لكم ، آسفون لسقوطكم أنتم أيضا ضحية التضليل الصهيوني . أعاني شخصيا ندما عميقا لترجمة كثير من كتبك وتقديمها للقارىء العربي . فقدان المثقفين العرب ثقتهم بكم لن يزيدهم الا ايمانا برسالتهم في الدفاع عن الحق العربي في فلسطين » .

أرسلت هذه البرقية الى سارتر وأنا واثق من ان لهجتها قد تكون أقسى من اللهجة التي يخاطب بها كاتب كاتبا سبق أن لقيه مرات ، وكادت تنعقد بينهما أواصر صداقة . وزاد استغرابي لهذا الموقف يتخذه سارتر بعد أن قضى عشرين يوما في الجمهورية العربية المتحدة أدلى فيها بتصريحات مختلفة كلها تعبير عن اعجابه بنهضتها وتقديره لرئيسها ودفاع عن حق اللاجئين بعودتهم الى بلادهم . ولقد كنت أقرأ في عيني سارتر ، حين لقيته في القاهرة بعض اللقاءات القصيرة ، تفهما لقضيتنا لن يلبث طويلا ، على ما كنت أرجو ، حتى يعبر عنه بما يدعم الحق العربي في فلسطين . وبالرغم من انني لم أكن مرتاحا لمرافقة كلود لانزمان (١) له ، ومن اني عبرت عن استغرابي امام المسؤولين لدعوته مع سارتر ، فقد كنت واثقا من ان صاحب « دروب الحرية » و « الاستعمار الجديد » سيكون من استقلال الشخصية وحرية الرأي بحيث يطرح عنه كل تأثير خارجي لا ينبع من قناعته وضميره .

وشككت ذات لحظة ، حتى بعد أن أرسلت البرقية ، أن يكون سارتر قد وقع حقا بيان المثقفين الفرنسيين . وانتظرت أياما أن يصدر تكذيب منه ، فذهب انتظاري عبثا ، وغمرني الحزن لان يذهب هذا المفكر الكبير فريسة سهلة للدعاية الصهيونية .

وحين قرأت نبأ منع كتب سارتر وسيمون دو بوفوار

---

(١) كاتب يهودي فرنسي من أشد المتحمسين لاسرائيل والصهيونية، وهو عضو هيئة تحرير مجلة « تان مودرن » .

في العراق ، سارعت أبرق لوزير الثقافة والارشاد مؤيدا هذا التدبير ، موقنا بأن أقل ما يمكن أن نواجه به هذا الكاتب نزع الثقة بما يكتب ، ما دام يبدو متناقضا في مواقفه .

وعدت الى بيان المثقفين الفرنسيين أدرسه وأراجع الحجج التي تذرعوا بها للانحياز الى اسرائيل . وقد حز في نفسي ان أرى سارتر ينضم الى بعض الكتاب المعروفين بانهم من محترفي مناهضة السامية ، ومن العنصريين المعادين للعرب ، ومن المتطرفين الذين كانوا يدعون الى جزائر فرنسية ويؤيدون « منظمة الجيش السرية » ومن ذوي الاتجاه اليميني الواضح . ولعل سارتر ، دفعا للظن بأنه متضامن معهم الى أبعد الحدود ، هو الذي أقنعهم بادراج عباره يعنون فيها تأييدهم لنضال الشعوب العربيه ومعارضتها للامبرياليه الاميركيه .

والحق اننا سنخرج عن جادة الصواب والعدل اذا اعتبرنا الدوافع التي دفعت سارتر لتوقيع البيان مماثله للتي اتخذها شخص كـ « كزافييه فالات » كان مفوضا لشؤون اليهود في عهد هتلر ، ثم أعلن توبته وانضمامه لمؤيدي الصهيونية ، وصرح بأنه يرى في النزاع الصهيوني العربي معركه بين « الغرب » و « الشرق » أو بين الامبرياليه وحركة تحرر الشعوب ...

ومع ذلك ، فما هي الحجج التي وردت في بيان المثقفين ، ووقع عليها سارتر ؟

لقد جاء في البيان « ان دوله اسرائيل تبرهن على رغبة واضحة في السلام وضبط النفس » وانها « البلد الوحيد الذي يوضع وجودها بالذات موضع التساؤل . في حين ان الشروط الضروريه للسلام هي أمن اسرائيل وسيادتها ، بما في ذلك الملاحة الحرة في المياه الدولية » وانه « من غير المفهوم ان يكون ثمة قسم من الرأي العام (والمقصود هنا الشيوعيون) يقر ان اسرائيل منحازة للمعسكر الامبريالي العدواني ، وان البلاد العربية منحازه للمعسكر الاشتراكي الداعي للسلام » .

ويبدو واضحا هنا ان سارتر قد اتخذ « موقفا » ، وتخلى عن موقف « الحياد » او « الغياب » الذي كان قد أعلنه قبل يومين أو ثلاثة من صدور البيان في العدد الخاص من مجلة « تان مودرن » .

لقد جاء في المقدمة التي كتبها سارتر لهذا العدد الذي حرره كتاب عرب واسرائيليون قوله بالحرف الواحد :

« ان الحياد (في النزاع العربي الاسرائيلي) لا يمكن أن يصدر الا عن اللامبالاة . وأعترف ان هذا موقف سهل ما دام صاحبه باقيا في أوروبا . اما اذا قام برحلة ، كما فعلت ، ورأى حول غزه الموت البطيء بين صفوف اللاجئين الفلسطينيين ، والاطفال المنقعين الناقصي التغذية ، أبناء أبوين ناقصي التغذية ، بعيونهم المظلمة المنطفئة ، واذا راى ، في الجهة الاخرى ، في «الكيبوتز» القائمة على الحدود ، الرجال يعملون في الحقول تحت التهديد المستمر ، والملاجىء المحفورة في كل مكان بين البيوت ، واذا تحدث الى ابنائهم الذين أصابوا غذاء جيدا . ولكنهم يحتفظون في أعماق عيونهم بقلق لا استطيع وصفه — فانه لا يمكنه أن يظل محايدا ، ذلك انه سيعيش الصراع بهوس ، ولا يستطيع أن يعيشه من غير تململ وتبرم مستمرين ، ومن غير أن يقلبه بحثا على جميع جوانبه ، ويلتمس له حلا ، فيما هو واثق من ان هذه المساعي لا طائل تحتها ، وان الامر سينتهي على النحو الذي يقرره الاسرائيليون والعرب . ولهذا أحتفظ لنفسي بحق ان أنشر ، هنا بالذات ، في الخريف أو الشتاء القادم — بعض التأملات التي اوحت لي بها رحلتي (...) واذن ، فلسنا هنا «حياديين» ، بل نحن «غائبون» » .

في هذا الكلام « لا موقف » واضح ، بالرغم من ان سارتر قال في جزء اخر من المقدمه ، كتبه بعد تأزم الموقف ، وقبل وقوع العدوان : « اننا ندين مقدما العدوان من حيث اتى ، كما ندين الاستفزاز الذي يجعل الحرب امرا لا مفر منه » . ولكن سارتر لا يوضح هنا أي استفزاز يقصد : اهو استفزاز اسرائيل حين هدد اشكول بالزحف على دمشق وقلب نظام الحكم فيها ، أم انه يعتبر اغلاق مضايق تيران استفزازا ؟

واذن ، يبقى سارتر في مقدمة مجلته «محايدا» أو «غائبا» . أما في بيان المثقفين فقد تخلى عن الحياد واصبح «حاضرا» ووقف بجانب اسرائيل حين وافق على انها « تبرهن على رغبة واضحة في السلام وضبط النفس » وان « وجودها موضع تساؤل وشك » وان من الضروري حفظ سلامتها وسيادتها ، وانها ليست ، على أقل تقدير ، منحازة « للمعسكر الامبريالي العدواني » .

لقد قال في مقدمة المجلة : « نحن ممزقون ، ولا نستطيع أن نفعل شيئا » .

أما في بيان المثقفين ، فقد قال شيئا ، وعلل موقفه .

يبقى ان البيان والمقدمة قد صدرا قبل العدوان . ويجب أن نعرف موقف سارتر بعد العدوان . ألا يزال سارتر يعتقد بأن اسرائيل قد برهنت على « رغبة واضحة في السلام » ؟ أليديه بعد شك في انها هي التي قامت بالعدوان ؟ واذا كان يقصد بالاستفزاز اغلاق تيران ، فلماذا ينسى ان التهديد باحتلال دمشق هو الاستفزاز الاكبر والاخطر الذي لم يكن اغلاق المضايق الا جوابا بسيطا له ؟

***

لقيت الصديق الاستاذ لطفي الخولي في القاهرة ، بعد العدوان ، فحدثني عن لقائه بسارتر في باريس بعد وقف القتال ، وروى لي طرفا من حديثه معه ، وانتهى الى القول بأن سارتر قد غير الان موقفه ، وانه يدين العدوان الاسرائيلي ، ويعتبر دايان مجرم حرب ، ويعتبر

اسرائيل كلب حراسة للامبريالية الاميركية ...

وأبلغني الاستاذ الخولي انه سينشر حديث سارتر كله في « الاهرام » ، ولكنني قلت له :

ـ اذا كان هذا هو موقف سارتر الجديد ، فان المثقفين العرب ينتظرون ان يصدر بيانا جديدا يعبر فيه عن رأيه ، وانهم لا يكتفون بهذا الذي قاله لك شخصيا ، مع كامل تقديرهم واحترامهم ... انهم ينتظرون ان يذيع بيانا ينشره على الرأي العام الفرنسي والعالمي ، في صحف باريس ...

واستطردت أقول :

ـ ... اذا كان هناك بعد صحف فرنسية لم تشترها الدعاية الصهيونية !

فابتسم لطفي الخولي وأجاب بأن سارتر قد وعد بنشر بيان عما قريب .

وقرأنا بعد ذلك الحوار الكامل الذي دار بين سارتر ولطفي الخولي ، وقد نشرته « الاهرام » على جزئين (١) .

ولا ريب في ان قارىء هذا الحديث سيقف دهشا متعجبا !

ان سارتر قد غير موقفه ، بل قلبه راسا على عقب، بالرغم من اصراره على القول بأنه قد اسيء فهم موقفه في البيان ، وبالرغم من أن له بعض وجهات النظر التي لا نوافقه عليها والتي يبدو انها قائمة اصلا على عدم فهم لبعض جوانب القضية الفلسطينية .

انه في حديثه يؤكد انه لم يقف ضد العرب في بيان المثقفين الفرنسيين ، بل وقف ضد الحرب . وانه كان وما زال وسيظل دائما حليفا للشعوب العربية وصديقا لها ، وان اسرائيل هي التي بدأت العدوان وكانت متأهبة للهجوم فعلا ، وان القوى العسكرية والدينية المتعصبة والرجعية هي القوى المسيطرة في اسرائيل في هذه الظروف ، وان اسرائيل لا تشكل حلا للمشكلة اليهودية ، وان توسيع حدود اسرائيل على حساب العرب لاستيعاب المهاجرين على الدوام هو اتجاه خطير لا ينبغي التسليم به .

وقد أقر سارتر كذلك وجهة النظر العربية بأنه قد حدث في ١٩٥٦ و ١٩٦٧ تواطؤ بين الاستعمار واسرائيل ، وان الحرب التي أشعلتها اسرائيل أخيرا لا يمكن الا أن تخدم المصالح الاميركية . وصرح سارتر بأنه لا يعتبر اسرائيل بلدا تقدميا لان تطورها لا يجري في اتجاه تقدمي ، وان تطور القطاع الخاص فيها قد قضى تماما على كل المعطيات التقدمية . ووصف نضال الشعب الفلسطيني بأنه حرب تحريرية مشروعة ، وان عودة الفلسطينيين الى اراضيهم هي القضية الاساسية ، في حين ان مشكلة الدولة الاسرائيلية مشكلة ثانوية ، واعترف بأن وضع الفلسطينيين في الارض المحتلة هو وضع مواطنين من الدرجة الثانية .

وقد أنهى سارتر حواره مع لطفي الخولي بالعبارة التالية :

« أرجو ان تنقل للشعب المصري وجميع الشعوب العربية تضامني معها في هذه المرحلة . انني أفهم جيدا جراحها وأشاركها مشاعرها وأتمنى لها الاستمرار في نضالها . كما أتمنى للرئيس جمال عبد الناصر أن يلقى دائما ما تأكد أخيرا من تأييد الجماهير الشعبية له ليواصل نضاله وانجازاته » .

كل هذا جاء في حديث سارتر « للاهرام » . وهو كما يرى القارىء لا يمكن أن يتفق مع موقف المثقفين الفرنسيين في بيانهم ، وليست القضية ، كما يدعي سارتر ، سوء فهم لموقفه ، بل انها تغيير كامل لهذا الموقف ...

وليس أمامنا مجال للشك في أمانة الاستاذ لطفي الخولي ، وأمانة جريدة « الاهرام » في نقل هذا الحديث ونشره . فكل هذا الذي يقوله سارتر منسجم أصلا مع تفكيره ومواقفه السابقة وفلسفته السياسية كلها . وكان العجب أن يتخذ الموقف الذي ظهر في بيان المثقفين ، لا هذا الموقف الذي عبرت عنه « الاهرام » ...

ومع ذلك ، فقد انقضى الان اكثر من شهر على نشر هذا الحوار ، ولم يصدر في الصحف الفرنسية ، على ما نعلم ، اي حديث لسارتر يؤكد فيه هذا الرأي الذي توجه به الى الشعب العربي ...

وبالرغم من ان المثقف العربي يسعده أن يرى هذا الموقف من سارتر ، سواء أكان موقفا جديدا فرضه تطور الظروف بين بيانه السابق والعدوان الاسرائيلي ، أم كان توضيحا وتفسيرا لذلك الموقف كما يريدنا سارتر أن نصدق ، فان هذا المثقف العربي حريص على أن يصدر سارتر بيانا جديدا واضحا يضمنه هذه الاراء ويحدد فيه موقفا نهائيا من هذا الصراع العربي الاسرائيلي .

ونحن الذين سارعنا الى استنكار بيان المثقفين الفرنسيين ، واتهمنا سارتر بالسقوط في أحضان الصهيونية ، نرى ، بعد حديث المفكر الفرنسي الى « الاهرام » ، أن نتريث في انتظار البيان الموعود ، أو في انتظار الدراسة التي وعد سارتر بنشرها في الخريف أو الشتاء القادم . ولا شك في اننا سنظفر انذاك برأي واضح نتخذ على اثره موقفا حاسما من سارتر .

وهذا لا يمنعنا من التعبير عن أملنا في أن نكتسب ـ من جديد ـ هذا المفكر الكبير الى صفوفنا .

سهيل ادريس

(١) اقرأ نص الحديث في مكان اخر من هذا العدد .